القب

مع دراسة تطبيقية
على
سياسة المغفور له
الملك عبد العزيز

١٤٠

بقلم: الدكتور بكر عمر العمري

ونظـــــرية الذوبان الاجتماعي

نالت «القبلية» كظاهرة ومبدأ من اهتمام الدارسين والباحثين نصيبًا كبيرًا من الدراسة والبحث خلال العقود الثلاثة الماضية. ويتضح للدارس في تاريخ ما يسمى بأمراض مبدأ القبلية "The Ills of Tribalism" أن القيادات السياسية والعلمية للكثير من الدول الأفريقية بوجه خاص قد وجهوا اهتمامًا كبيرًا أو ظاهرًا إلى دراسة هذه العلل. ومحاولة ايجاد علاج لها. ويرجع هذا على الاغلب إلى ظروف أفريقيا التي ورثت الانظمة السياسية للقوى الاستعمارية الأوروبية قد مهدت الطريق أمام هؤلاء الزعماء الافارقة لكي يسعوا إلى ايجاد وسيلة للتعايش وللحياة بين مجموعاتهم الوطنية المختلفة. وهي في الواقع مهمة صعبة وشاقة للغاية لمشاعر القبلية مرض مزمن .. وهي تجد بالإضافة إلى أزماتها هذا تشجيعًا من بعض زعماء هذه

الدول الذين يجنون فائدتهم ومصلحتهم الخاصة في اثارة المشاعر القبلية لمواطنيهم. لهذا كانت ظاهرة الفوضى السياسية مظهرًا عامًا للحياة الاجتماعية في هذه الدول التي وجدت في ابنائها أنفسهم معوقًا من معوقات بنائها القومي نتيجة تمسكهم بالمصالح الخاصة التي يزكيها في أنفسهم تعصبهم القبلي.

القبلية في الدول النامية :

إن اختلاف معدلات النمو بين الاقاليم المتقدمة والاقاليم النامية في غالبية مناطق أفريقيا وفي المناطق القبلية الاخرى يتضح أساسًا في التباين الاقتصادي الناجم عن الفوارق الاجتماعية بين هذه الاقاليم. وتعتبر العوامل الطبيعية من الاسباب الهامة لهذا التفاوت بسبب عدم استطاعة بعض هذه الاقاليم استغلال مواردها استغلالاً كاملاً. كما تعتبر العوامل السياسية أيضًا من أسباب الانهيار الاقتصادي والاجتماعي بين هذه المجتمعات، إما لعدم التجانس الناتج عن التمسك بالحياة القبلية ذات التقاليد والعادات — وأحيانًا اللهجات — المختلفة أو نتيجة لعدم اندماج الهياكل الاجتماعية بسبب الضغوط الخارجية والداخلية حتى في داخل الدولة الواحدة. يضاف إلى هذا عامل هام هو سوء توزيع النشاط الاقتصادي وانخفاض مستويات المعيشة وانتشار الامراض.

كل هذه العوامل مجتمعة تزيد من صعوبة تحديد مفهوم ما نحن بصدد محاولة وضع مفهوم له وهو القبلية ... فمن هنا نشأت الصعوبة في تحديد هذا المفهوم ونشأ التضارب والتخبط وعدم الاتفاق بين الدارسين والباحثين في تعريف ماهية القبلية. ولكن يمكننا أن نجمع هذه الدراسات وهذه المحاولات في ثلاث مدارس قطعت كل منها شوطًا لا بأس به في تعريف القبلية :

أولاً : ترى أن القبلية عبارة عن حيلة يستخدمها البرجوازيون Bourgeoisie من أجل جعل حياتهم اكثر سعادة واكثر رخاء. حيث يجدون مصلحتهم في الابقاء على القبلية بأوضاعها الراهنة[٢].

وثانيها : وهي المدرسة التي يقودها الاستاذ الأفريقي آرشي مافيجي وتعرف القبلية على أنها فكرة قام بتسويقها علماء الاجتماع الغربيون ثم وظفت كأيديولوجية

تخدم المصلحة الشخصية لمجموعة من القادة الافريقيين[٣].

أما ثالث هذه المدارس فترى أنها تمثل حقيقة الوضع القائم في أفريقيا تلك الحقيقة التي حاول بعض الزعماء الافارقة تجنبها بغير مبرر.[٤]

مواصفات الحياة القبلية :

غالبًا ما تتكون القبيلة من مجموعة كبيرة أو صغيرة من الأفراد تجمعهم مواصفات واحدة — فهم جميعًا توجد بينهم درجة عالية من القرابه كما أن الأرض التي يسكنون عليها غالبًا ما تكون لهم جميعًا وليست ملكًا لأفراد منهم وقد يسمى هذا النوع من الملكية الملكية العائلية والقبلية للأرض.

وتتم العلاقات بين **أفراد القبيلة** بصفة مباشرة أي عن طريق الاتصال المباشر — وهي في علاقاتها بالمجتمعات الخارجية تكاد تكون منعزلة نتيجة لافتقارها إلى طرق المواصلات أو وسائل الاتصال اللازمة، ولهذا غالبًا لايعرف الكثير من أفراد القبيلة إلا مجتمعهم ولا علم لهم بشئون المجتمعات الاخرى كما أن تبادل الخبرات بين أفراد القبيلة وأفراد القبائل الاخرى يكاد ينعدم. ومعنى هذا أن «حضارة» هذه القبيلة تكون محلية تمامًا ومن إنتاج أفرادها دون أن تؤثر عليهم عناصر الحضارات أو المجتمعات أو القبائل الاخرى إلا فيما ندر.

كما يسيطر على مجتمع القبيلة نوع من العادات التي يكسبها أفرادها على مر الزمان لمواجهة احتياجات معينة يرى قادة القبيلة ضرورة تنفيذها، وقد يكون بعضها غير منطقي أو غير مسبب إلا أن أفراد القبيلة جميعًا ملزمون بممارسة هذه العادات والتقاليد نتيجة معيشتهم في حدود ونطاق مجتمع القبيلة رغم ما قد يكون من عدم اقتناع البعض بها. ولكن الاساس في اقتناع أفراد القبيلة بهذه العادات والتقاليد هو التجربة والممارسة العملية، ومن الصعب بعد ذلك تغييرها أو التعديل منها أو تهذيبها نظرًا لعدم احتكاك أفراد القبيلة بالمجتمعات الاخرى والبطء الشديد الذي يتميز به التغير الاجتماعي في مثل هذه المجتمعات البدائية وتعوّد أفرادها على ممارسة هذه العادات دون تغيير أو تطوير فيها نقلاً عن والأجداد والآباء.

ومن هنا نستطيع القول إن أفراد القبيلة الواحدة تصبح ثقافتهم واحدة وعاداتهم وتقاليدهم واحدة وقد يمارسون مهنة واحدة، سواء كانت الزراعة أو الصيد أو الرعي ومن هنا تنشأ صفات عديدة لتجانس أفراد القبيلة الواحدة وينشأ فيها نوع من التوزيع البدائي للعمل وبخاصة بين الرجال والنساء.

وتغلب القيم الروحية في مجتمع القبيلة على القيم المادية فأفراد القبيلة غالبًا متدينون وهم يربطون جميع الظواهر الاجتماعية والمادية التي تمر بهم بالمعتقدات الدينية وتعتمد الروابط والعلاقات الاجتماعية التي تنشأ بينهم على العرف والتقاليد والقيم الدينية وعلى الاتفاق الشفوي وكلمة الشرف. أما التخلف الحضاري في حياة القبيلة فهو ناشئ عن تغلب الجانب غير المادي على الجانب المادي وقد يساء فهم بعض المعتقدات الدينية ولهذا غالبًا ما تنشأ الخرافات والبدع والتزمت ومحاربة كل جديد.

ومصدر النظام في القبيلة هو العادات والتقاليد فكلمة كبير السن لها تقديرها واحترامها من الجميع وهو قضاة القبيلة اذا ما نشأ خلاف بين أفرادها وكلمة الشخص القوي كبير السن منهم هي النافذة.

الزعماء الأفارقة وتحديدهم لمفهوم القبلية :

وقد استمرت هذه الاوضاع قائمة بالنسبة للحياة القبلية في أفريقيا حتى في القرن العشرين . ورغم ظهور قيادات واعية ومتعلمة ومثقفة لبعض هذه القبائل وبخاصة في أفريقيا، إلا أن تعليم وثقافة هذه القيادات غالبًا ماكان موجهًا بواسطة أصحاب الكلمة العليا في المناطق التي تقطنها هذه القبائل ألا وهم المستعمرون. وكما ظهرت مدارس فكرية تحاول وضع وتحديد مفهوم للقبيلة من علماء غربيين وشرقيين نجد أن بعض زعماء هذه القبائل بما توفر لهم من تعليم لديهم آراء مختلفة بالنسبة للقبيلة : فالقبيلة في نظر **كوامي نكروما** (٥) Kwame Nkrumah هي شرح لميول عدم **الذوبان الاجتماعي** Social Disintegration ، لذلك نجد أن دعوة نكروما لحل مشكلة القبيلة في غانا تنادي باستخدام الجهد التام أو الكامل للحد من النزعة القبلية للرجل الأفريقي القبلي. وفي سبيل ذلك فان نكروما يجد أن نظام الحزب الواحد يمثل الوسيلة أو الاداة الوحيدة التي يمكن بها القضاء على التركيبات القبلية والعمل على بناء

اتصالات متناسقة فعالة بين العناصر الغانية ذات الاصول والجذور القبلية المختلفة[٦].

وبالإضافة لفهم **كوامي نكروما**، فان الباحث سوف يجد نظرية أخرى تعالج فكرة القبلية وتحمل اسم الزعيم الأفريقي المعروف **كوفي بوسيا** **Kufi Busia** أحد الزعماء الأفارقة والتي تعالج فكرة القبلية. ويؤمن **بوسيا** بأن القبائل تمثل قوى يجب أخذها في الاعتبار وأن الزعماء الأفريقيين يجب عليهم عدم محاولة خمد القبلية ولكن يجب عليهم البحث عن طرق لضمها في اطار نظرية البناء القومي.

وفي الحقيقة، فان الفرق بين **نكروما وبوسيا** إنما هو نموذج مصغر للاختلاف الكبير والواسع بين الزعماء الأفريقيين حول مشكلة علاج القبلية. فمثلاً هناك زعماء يشعرون بأن القبائل وفكرة الشعور القبلي التي نتجت عنها يجب القضاء عليها من خلال بناء تنظيمات الحزب الواحد[٧]. ان هؤلاء الزعماء يمثلون الفئة التي تعتبر أشد عداء لحراس الشخصية القبلية. بينما نجد أيضًا في الطرف المقابل لهذه الفئة المحافظين على الشخصية القبلية، وهذه المجموعة تعتبر في حالة دفاع دائم عن فكرة القبلية وأثرها، في سياسات المجتمع الأفريقي، ومن هذا المنطلق الفلسفي فهي تبنى دفاعها عن الشخصية القبلية بأن معظم الناس، أفريقيين وغير أفريقيين يسيئون فهم قصدهم بالدفاع عن الشخصية القبلية، لذلك فهم يقولون بأن القبائل يمكن أن توجد وتعيش في المجتمع الأفريقي بدون بناء وتنمية فكرة القبيلة.

ان هذين الوضعين اللذين يسيطران على الفكر الأفريقي في الوقت المعاصر بالنسبة لفكرة القبلية له مزاياه ومساوئه عندما ينظر إليه من خلال نظرة البناء القومي. لذلك فإنه يمكن القول بأن وجهة معارضي فكرة القبلية صحيحة، لان تشجيع الشعور القبلي يفتح باب المشاكل، الذي يشمل محتويات خطيرة ومميته للدولة الناشئة. ان هذا القول صحيح لانه إذاكان أعضاء القبائل المختلفة غير متساوين اقتصاديًا، فان فرص القبائل الاكثر حظًا للسيطرة على غيرها من القبائل سوف تزداد. وتحت هذه الظروف، فإننا نجد القبلية تضع الوطن في حالة حصار، لذلك فان الخلافات والنزعات المستمرة ستنمو إلى درجة تهدد أسس الدولة، وستختفي بذلك جميع الآمال لتوحيد هذه القبائل وتموت. في الحقيقة فاننا نجد في هذه الحالة، أن القبائل

الاقل حظًا ستستخدم القبلية فقط كقناع تخفي خلفه الموضوع الرئيسي الذي يشغل بالها، والذي سيكون محوره الاقتصاديات.

اذا نظرنا إلى فكرة القبيلة من وجهة نظر مؤيديها أو أنصارها فان الفرد يمكن له القول أيضًا بأن وجهة نظرهم تحتوي على نقطة تستحق التفكير والدراسة. إن الحقيقة العلمية التي تقول بأن الانسان يعيش في عالم يشتهر **بالابعاد المتعددة Multi-dimensionality** تجعل من الضروري أن يكون **له هوايات متعددة Compartmentalized Identities**. وماذا يقصد من هذا القول إن الانسان يمكن أن يكون **ايبو Ibo ونيجيريا Nigerian** معًا[٨].

وفي ضوء هذه المنافسة فاننا نستطيع الذهاب في القول بأنه لا يمكن **للرجل القبلي The Tribal Man أن يفصل بين التزاماته القبلية والتزاماته للدولة فان حالته الذهنية حينئذ لن تكون أبدًا مسرحًا للمشاعر المتنازعة. ولكن لكي يمكن الوصول إلى هذه الحالة النفسية السليمة، فان تنظيمات الدولة يجب أن تقام على أسس ادارية متينة. بمعنى آخر، فان كل جزء من أجزاء المجتمع**، مهما كان صغيرًا، يجب أن يجد دورًا يلعبه في بناء الامة، وأن جميع الاجزاء يجب أن تتعاون من اجل دفع عجلة التقدم والتطور تحت الزعامة الرشيدة. ان مجموعة هذه النقط النظرية التي شرحتها سبق أن تم معالجتها وصدر بصددها دراسات علمية مستفيضة في الماضي من علماء مثل **بنتلي Bentley** ، **سيمور مارتن ليبست Seymour M. Lipset** ، **كوسر Coser** ، **والبروفسور ارند ليبجفهارت Arend Lijphart** . ان العلماء الثلاثة الأوائل، **بنتلي، سيمور مارتن ليبست وكوسر**، يحدثونا بأنه في المجتمع الكبير الواسع الاستقرار ينمو فن الحقيقة التي تقول بأن كل عضو في المجتمع له **انتماءات متعددة Multiple Affiliations** . فبالنسبة لهؤلاء العلماء، فان مثل هذا التنظيم يسهل عملية **الذوبان الاجتماعي Social Integration** حتى تحاول العمل على تحييد الفرد وتمنعه من استخدام طاقاته الجسمية الذهنية والعاطفية لتقوية انتماء معين[٩].

غير أننا نجد أن دراسات البروفسور ليبجفهارت لها احتمالات تطبيق في المجتمعات المنقسمة قبليًا. ان هذا العالم الامريكي يقول في نظريته إن مثل هذه المجتمعات يمكن

لها أن تكون مستقرة فقط لو أن الاعيان والقادة استطاعوا ممارسة عملية الاخذ والعطاء على المستوى القيادي. ولكن في سبيل شرح نظريته، فإن البروفسور ليبجهارت يضع شروطًا كثيرة. فهو يشترط أن الوحدات الصغيرة في هذه المجتمعات الكبيرة يجب أن تتمتع بنوع من اللامركزية الإدارية، أي أن قادة هذه الوحدات الإدارية يصبحون اداة الربط بين مركز الدائرة والوحدات، أي أن ولاءهم للنظام القائم يصبح غير مشكوك فيه(١٠).

وفي ضوء هذه الافتراضات النظرية للعلماء الذين أشرنا إليهم، يستطيع الباحث أن يصل إلى نقطة يرى منها القبائل الأفريقية في ضوء جديد. فلو أن رجال القبائل الأفريقيين يرغبون في المحافظة على كل من **ذاتهم القبلية National Identity**، **وذاتهم القومية Tribal Identity** فانه يجب عليهم أن يتكلموا اللغة التي يطلق عليها **البروفسور ارند ليبجهارت .. الديمقراطية المزدوجة Consociational Democracy** ولو أن أعداء القبلية مثلاً، يرغبون في القضاء على قواعد وركائز القبلية في مجتمعاتهم، فانه يجب عليهم أيضًا تطوير **القاعدة الاقتصادية الاجتماعية Socio- Economic Base** لمجتمعاتهم بسرعة، لانه فقط خلال التعديل الجذري لهذه القاعدة يمكن للانتماءات المتعددة من أفراد شعوبهم أن تتطور.

القبلية : بناءً على ذلك. ليست بمرض لا يوجد له شفاء، فهناك يوجد كثير من الطرق الجراحية التي يمكن استخدامها. فلو أن الأفريقيين يريدون أن يريحوا أنفسهم من خطر وجود هذا الشبح، فانه يجب عليهم العمل في ضوء مقترحات الجراحين السياسيين. غير أنه يوجد هناك عامل آخر لا يجب اهماله، وهذا العامل هو خطورة الموضوع وحساسية العملية. فلو أن الأفريقيين يودون النجاح في هذا الميدان من ميادين التطور التي يعيشها العالم المعاصر، فانه يجب عليهم أن يعملوا أحسن من الأوربيين، الذين كان عليهم أن يقاتلوا حروبًا رئيسة لكي يخلصوا مجتمعاتهم من هذا السرطان.

ولقد اهتم **ليفين**(١١) بالكشف عن القوى التي تؤثر على المجتمع القبلي واستخدم الاسلوب التجريبي العملي في الوصول إلى نظريته عن ديناميات الجماعة القبلية، وقد

استطاع ليفين أن يدرس بعمق ديناميات الجماعة القبلية كقوى وحقائق وعوامل تتصل بوجودها الواقعي مثل عوامل تكوين القبيلة وعوامل تشكيل سلوك أفرادها وجماعاتها وعوامل تماسك أفرادها وتلاحمهم والصراعات التي قد تنشأ بينهم والمعايير والقيم التي يمكن البحث عن وسائل تجعل منها أمورًا ذات فاعلية في تحديد مستقبل القبلية.

ومن هنا تنشأ في ذهن الباحث مجموعة من التساؤلات الاساسية عن حياة المجتمع القبلي ... ومن هذه التساؤلات :

— ماهي الاسس التي تحدد الظروف التي تنتج آثارها الفعالة في تكوين حياة القبيلة ؟

— ما الذي يدعو إلى مقاومة التغيير في حياة القبيلة وفي عادات أفرادها وفي تقاليدهم المتوارثة ؟

— كيف يمكن أن نحدث تغييرًا في حياة أفراد القبيلة وماهي الضمانات الكفيلة بنجاح مثل هذا التغيير؟

— ما هي أنماط القيادة التي تمارس في مجتمع القبيلة سلطاتها التي لا حدود لها وتجعل كلمتها هي الوحيدة النافذة ؟

— ما هي العوامل التي تدعو إلى ترابط أفراد القبيلة وتماسكهم ؟

كيف يمكن أن نصل إلى مخطط واضح المعالم لتنفيذ عمليات الصهر والاذابة للمجتمع القبلي في المجتمعات المستقرة أو المتحضرة ؟

ويقصد الباحث من **الانصهار أو الذوبان** Integration أن الذوبان القومي تعني اقامة **شبكة اتصال اجتماعي** Social Communication Network ان المتحدث العظيم لهذه المدرسة **كارل دوبتس** Karl Deutsch ، البروفسور الجليل بجامعة هارفارد. ان عملية الذوبان الاجتماعي بالنسبة للبروفسور دوبتش هي حالة وخطوات. فهي حالة تمثل في حد ذاتها الإنتاج النهائي للانصهار الذي يظهر بعد عدة عمليات متسلسلة. في كتابه : Nationalism and Its Alternatives **الصادر في عام ١٩٦٩ م. نجد البروفسور دوبتش** يستخدم الوثائق بأسلوب علمي أخاذ، ليرينا

كيف أن الاوربيين تطوروا إلى دول قومية منفصلة (١٢) . فهو يحثنا في هذا الكتاب على ان الانصهار الوطني يصبح ممكنًا بعد اتخاذ ست خطوات أو عمليات بين مجموعة من السكان يقيمون على منطقة معينة من الأرض، وفي ضوء هذا نجد **البروفسور كارل دوبتش يسجل الخطوات الست كما يلي :**

(أ) تطوير الـدول.

(ب) تطوير وسيلة الاتصال الغير منظورة — أي اللغة.

(جـ) علمية الذوبان الاجتماعي للقادة.

(د) عملية الذوبان الاجتماعي للقبائل.

(هـ) عملية تطوير فكرة الامة من خلال الاتصال الاجتماعي.

(و) عملية الذوبان السياسي للاداة الحكومية.

لذلك نجد أن فكرة الاتصال الاجتماعي تصبح حجر الاساس لفهم نظرية البروفسور كارس دوبتش عن الانصهار أو الذوبان الاجتماعي. ان هذا العالم يؤمن بأن فكرة الاتصال الاجتماعي تكون القاعدة الاساسية للذوبان السياسي للمجتمع. إن عملية كهذه تجعل من الممكن لاعضاء المجتمع أن يتصلوا ببعضهم البعض في موضوعات ذات أبعاد واسعة. كما أنها تعطيهم أيضًا الاحساس بشعور المحبة المتبادل الذي بالتالي يدعم عادة الاتصال الاجتماعي. ان الانصهار الاجتماعي في نظر **الاستاذ كارل دوبتش**، عبارة عن عملية مستمرة أي أن المجتمعات تختلف في مراحل تطورها وتقدمها لشبكة الاتصال الاجتماعي (١٣).

وإلى جانب المدرسة التي يمثلها **البروفسور كارل دوبتش**، فانه يوجد علماء آخرون عالجوا هذه المشكلة. فالمدرسة الثانية، تضم علماء مثل **سيمور مارتن ليبست Seymour M. Lipset** ، **جيمس كولمان James Coleman** وغيرهم، نرى أن الأنصهار أو الذوبان الاجتماعي يمكن تحقيقه عندما يتمتع أفراد المجتمع بالانتماءات أو العضوية المتعددة، ويوافقون أيضًا على قوانين اللعبة السياسية، فمثلاً نجد **سيمور مارتن ليبست** في كتابه **التحرك الاجتماعي في المجتمع الصناعي Social Mobility in Industrial Society الصادر في عام ١٩٦٢ م** ، يقول إنه يجب

الاعتناء بفكرة الانتماءات المتداخلة في المجتمع ، لانه يعمل بالافتراض بأن الذوبان السياسي يتم بنجاح عندما يتم ربط أعضاء المجتمع مباشرة بالنظام السياسي عن طريق عملية الانتماءات المتعددة[١٤].

أما **المدرسة الثالثة**، والتي يرأسها **البروفسور أرتد ليبجفهارت**، ترى أن الذوبان يمكن تحقيقه كنتيجة لسياسة الاخذ والعطاء بين غالبية المجتمع عند مستوى القيادة. ان **البرفسور ليبجفهارت** يناقش نظريته في كتابه **سياسات الأخذ والعطاء** The Politics of Accomodation **الصادر في عام ١٩٦٨ م**، فيقول بأن الذوبان الاجتماعي يمكن تحقيقه اذا ما استعملنا **النموذج الديمقراطي** المزدوج[١٥] **Consociational democracy model**

بعد القيام بهذه الرحلة السريعة بين أعضاء عائلة الانصهار الاجتماعي حيث امكن لنا أخذ فكرة سريعة عن مدارسها المختلفة، فاننا الآن سنعيد عدسة جهازنا مرة أخرى لنسلطها على تاريخ المملكة العربية السعودية لكي نتمكن من شرح التجربة السعودية لانها تتصل بطريق مباشر بمشكلة الذوبان الاجتماعي في أفريقيا وفي أي دولة اخرى نامية.

غيرأن هناك مجتمع واحد استطاع أن يتعامل مع هذه المشكلة بطريقة حاسمة وشاملة. **أن المملكة العربية السعودية تم تأسيسها كدولة متطورة متقدمة تحت زعامة المغفور له الملك عبد العزيز في سبتمبر عام ١٩٣٢ م. ان الدارس لتاريخ المملكة العربية السعودية في ذلك الوقت يجد أنها كانت تتألف من أربعة مناطق جغرافية وعدد كبير من القبائل الرئيسية والفرعية. لكن طالب تاريخ المملكة العربية السعودية المعاصر سيجد أنه لا يوجد هناك أي مشاكل قبلية كما أنه لم يكن هناك أيضًا أية إبادة جماعية للقبائل، كما نعرفها في دراستنا لنظام الحكومات المقارنة ونقرأ عنها في صحف العالم المختلفة. ان عملية الذوبان الاجتماعي كما يعرفها علماء العلوم السياسية اليوم، قد تمت بنجاح في المملكة العربية السعودية إلى درجة أن الادارة الحكومية** Bureaucracy **قد ملئت بأبناء المناطق الأربع بما فيها جميع القبائل. وأن جميعهم قد تم تعليمهم بدرجة متشابهة بل وشجعوا عليه. إن تحول** Transformation **مجتمع الجزيرة العربية من حالته السابقة التي اتصفت بالتفرقة**

والارتباك إلى شعب اليوم المستقر الآمن والمتماسك يمكن أن يرجع فضله إلى المغفور له الملك عبد العزيز والقيادات السياسية المتعاقبة. ولكن لكي يمكن لنا أن نفهم التجربة السعودية في هذا الميدان، فانه يجب أن تدرس الخطوات التي اتخذت في اطار نظرية الذوبان وكيف تم انشاء المملكة العربية السعودية، لربما أن هذه الدراسة التحليلية ستساعد أخواني الافريقيين، علماء وقادة.

التجربة والسعودية :

ولكي نفهم هذه التجربة فهمًا عميقًا وصحيحاً فانه يجب علينا التحدث عن موضوعين مهمين أولهما: عبقرية المغفور له **الملك عبد العزيز**، وثانيهما عملية الذوبان القومي التي تمت خلال حياة هذا القائد العبقري.

أولاً : عبقرية الملك عبد العزيز :

ان التاريخ يحدثنا ان **الملك عبد العزيز قد توفرت فيه جميع معايير Criteria الزعيم العبقري Charismatic Leader أن ماكس ويبر Max Weber العالم الألماني الذي كتب كثيرًا عن هذه النظرية، يعرّف العبقرية في كتابه المشهور العبقرية والبناء الإداري On Charisma and Institutions-Building الذي ترجم إلى الإنجليزية بواسطة اس. ان. ايزن استادت S. N. Eisenstadt في عام ١٩٦٨، فيقول بأنها صفة معينة لشخصية فرد ما التي بفضلها أصبح مميزًا عن الرجل العادي وعومل طبقًا لذلك وكأنه منح مزايا استثنائية**[١٦]. ان هذا التعريف يقودنا إلى الاعتراف بأن إنجازات المغفور له **الملك عبد العزيز** جعلت منه عملاقًا بين الرجال.

إن قدرته الباهرة للتعامل بنجاح مع الموضوع العظيم الذي يهدف إلى توحيد عناصر الجزيرة العربية المحبة للحروب والغير أليفة رشحته فضلاً لدور الانسان الذي تجاوز حدود الانسان العادي. ان هذا الجانب المضيء من حياة المغفور له الملك عبد العزيز قد ناقشه مؤرخون كثيرون امثال **أمين الريحاني**[١٧] **Ameen Rihani، العالم السوري — الامريكي، في كتابه صانع الجزيرة العربية الحديثة Maker of Modern Arabia، جون فيلي John Philby في كتبه العديدة والتي منها كتاب المملكة العربية السعودية Saudi Arabia**[١٨] **وفان در ميلون Van der Meulen الدبلوماسي الهولندي الذي كتب كثيرًا عن التجربة السعودية والذي من بينها كتابه وصايا ابن سعود**[١٩] **The Wills of Ibn Saud**، ومن دراسة أعمال هذه الاسماء العظيمة المتخصصة في دراسات الشرق الأوسط نستطيع أن نقول إن جوهر العبقرية يمكن تحديده في ضوء قدرتها على تضييق الفجوة بين الغايات العامة للقائد المؤسس وبين الوسائل المحددة المتاحة له. بمعنى آخر أن القائد العبقري يمكن أن يكون عاملاً حاسمًا في عملية البناء القومي.

إن البروفسور **دانكورت روستو Dan Kwart Rustow يخبرنا في كتابه فلاسفة وملوك: دراسات في القيادة Philosophers and Kings: Studies In Leadership** أن الزعيم الناجح يجب أن يعرف الماضي ويكون قادرًا أيضًا على استخدام الماضي البعيد كحليف ضد الماضي المباشر[٢٠]. فمثلاً عندما ندرس حياة المغفور له **الملك عبد العزيز**

نجد أنه عرف دروس التاريخ معرفة جيدة، وأنه مثلاً استخدم **تاريخ الاسرة السعودية البعيدة لكي يتحدى ادعاءات الغير للاستيلاء على الحكم في نجد بل في الجزيرة العربية بأسرها.**

ان دراسات **البروسور دانكورت روستو** تشير إلى أنه يوجد هناك عدة طرق ووسائل تساعد القائد والزعيم على تنظيم جهود الآخرين وهذه الوسائل هي : **البعد Detachment ، المساهمة والمشاركة Involvement ، الاتصال Communication ، الاختراع أو الابتكار Innovation تصور التغير المستمر Perception of Ongoing Change.**

وفي ضوء رأي **البروفسور دانكورت روستو** يمكن لنا تطبيق الوسائل التي أشار إليها في ضوء المعلومات التاريخية عن المغفور له **الملك عبد العزيز.**

فترة البعد والاغتراب :

ان هذه الفترة كما يحدثنا التاريخ، كانت عبارة عن تلك الفترة التي قضاها جلالة **الملك عبد العزيز** في صباه، خارج بلاده بعيدًا عن عشيرته وأنصار عائلته، حيث قادته إلى التأمل والتفكير العميق في المجد الضائع لعائلته، مما خلق في نفسه تصميمًا قويًا على استعادة ذلك المجد الزاهي، وبذلك أدت هذه الخطوة إلى مرحلة المساهمة أو المشاركة.

الاتصـــــال :

ان هذه الوسيلة كانت في بداية نضال **الملك عبد العزيز** لاسترداد ملك أجداده، وتأسيس حكم يُرجع إلى الجزيرة العربية عز ماضيها، في شعور واحساس الصحراء، عن طريق الرحلات والخطابات الشفهية. ولكن هذه الوسيلة سرعان ما تطورت وأخذت شكل الآلات الحديثة في عالم الاتصال، وهذه تتمثل في الاستخدام الواسع للتليفون، التلغراف والسيارة، الاختراع أو الابتكار.

ان هذه الوسيلة قد ناقشها كثير من المؤرخين وأساتذة العلوم السياسية كما اني سأتحدث عنها خلال مناقشتي لعملية الذوبان الوطني للتجربة السعودية. على أية

حال، فان التركيز سيكون على مشروع تعليم أبناء الجزيرة العربية الذي يهدف إلى تجسيد قدراتهم وتحويلها إلى اداة فعالة في بناء صرح الامة السعودية.

التصور للتغير المستمر :

ان الكاتب الانجليزي **جون فيلي** كتب منذ سنوات طويلة بأن المغفور له **الملك عبد العزيز** كان دائم التفكير والتأمل، غير قانع باتباع الطرق العادة كما يفعل الكثيرون. من هذه العبارة نستطيع أن نستنتج أن **الملك عبد العزيز** كان دائمًا مستعدًا ومتأهبًا للظروف التي تملي الحاجة للتغيير.

ثانيًا : عملية الذوبان الوطني والجزيرة العربية :

ان التاريخ يحدثنا تفصيليًا عن الوضع السياسي في الجزيرة العربية قبل استيلاء الملك عبد العزيز عليه، فيصفه بعدم الاستقرار الناتج عن الحروب القبلية المستمرة. بمعنى آخر أن الحروب كانت عادة ولم تكن استثناء. كل قبيلة كانت مستعدة لأن تستخدم كل قوتها التدميرية ضد الاخرى لتحقيق مصلحتها القبلية. لذلك يقول المؤرخون السياسيون بأنه لم تكن هناك سلطة مركزية قادرة على اقامة نظام مستقر قائم على اتباع القانون **(الشريعة)** في ذلك الجزء من العالم. لكن العبقرية التي تمتع بها المغفور له **الملك عبد العزيز** جعلت من الممكن لعرب الجزيرة العربية أن يتطوروا إلى أمة بطريقة آمنة بناءة. إن قصة نجاح **الملك عبد العزيز** تقوم على الاجراءات التالية التي قام باتخاذها :

١ ـــ استخدام عبقريته في جميع العناصر التي تؤيده لاقامة ميكانيكية سياسية يمكن لها تطويق شعور عدم الراحة للبدو.

٢ ـــ بعد إقامة اجهزة الدولة وتنظيمها إداريًا فان المغفور **الملك عبد العزيز استطاع أن يطهر المناطق الجغرافية المختلفة في اطار مملكته عن طريق جمعها تحت سقف سياسي واحد.**

٣ ـــ **ان جهود الملك عبد العزيز** في بناء الدولة قادت إلى اقامة انظمة

للتعليم والمواصلات التي كان دورها بالتالي فعّالاً وذا أبعاد واسعة على التركيب الحكومي الحالي.

نظام التعليم كعامل فعال في عملية الذوبان القومي:

إن تاريخ التعليم في الجزيرة العربية، قبل عهد **الملك عبد العزيز**، يشير إلى أنه لم يكن يوجد هناك إدارة للتعليم بمعناها الحديث في الجزيرة العربية. فالتعليم الحديث كان مركزًا في المدارس الخاصة، كما يقول **الأستاذ خير الدين الزركلي** في كتابة الجزيرة العربية في عهد **الملك عبد العزيز**، وأن هذه المدارس كانت مقامة في منطقة الحجاز(٢١)، غير أنه تم انشاء أول إدارة للتعليم في مكة عام ١٩٢٦ م.

وقد مرت الثورة التعليمية التي فجر طاقاتها المغفور له **الملك عبد العزيز** في الجزيرة العربية بمراحل متعددة، كان من نتائجها بصفة عامة ان ظهرت بالمملكة أربعة أنواع من التعليم:

١ — مدارس رسمية في المدن والقرى.
٢ — مدارس دينية في أماكن توطين البادية والقبائل.
٣ — بعثات تعليمية في الخارج لتلقي المواد التي لم تتيسر في الداخل.
٤ — مدارس خاصة.

ان الجدول التالي سوف يعطينا صورة واضحة عن أبعاد هذه الثورة التعليمية التي نعيشها اليوم. لقد اخترت المدة ما بين عام **١٩٥٠** وعام **١٩٥٣** لانها في نظري تمثل ذروة الثورة التعليمية في عهد **الملك عبد العزيز** رحمه الله.

السنة	مدارس	مدرسون	طلاب
١٩٥٠	١٤٦	٦٤٣	١٦٠٢٩
١٩٥١	١٩٦	٩٤٣	٢٣٨٣٥
١٩٥٣	٣٢٦	١٦٥٢	٤٣٧٣٤

ان افواج المتعلمين من **الشباب السعودي** قد أعطى الآن الإدارة الحكومية فرصة لأن تتطور وتصبح أداة فعالة لتحقيق الذوبان القومي في المملكة العربية السعودية.

الإدارة الحكومية والذوبان القومي :

يجمع المؤرخون على أن **جلالة الملك عبد العزيز كان مسيطرًا تمامًا على الجزيرة العربية قبل عام ١٩٣٢**. ولكن اتساع حكمه جعل من الصعب على رجل واحد أن يدير إدارة حكومية واسعة. وعندما بدأ يبحث عن أشخاص لتملأ الإدارة الحكومية، فإن **جلالة الملك عبد العزيز** بدأ يواجه مشكلة النقص في السعوديين الاكفاء. لذلك يقول المؤرخون إنه اضطر إلى توظيف بعض الخبراء من الدول العربية. ومهما تكن قدرة هؤلاء الخبراء. فإن **جلالة الملك عبد العزيز** عرف تمامًا أنه من الضروري جدًا العمل على وضع ابناء أمته الجديدة في امكنتهم. وكان التوسع في التعليم هو حله الوحيد لهذه المشكلة.

وكما يعرف القارئ الكريم أن المناطق الأربعة المكونة للمملكة، **نجد، الحجاز، المنطقة الشرقية وعسير،** كانت تختلف إداريًا، غير أنها وحدت طبعًاعن طريق ولائها للملك عبد العزيز، الذي تم تحقيقة بفضل صفاته العبقرية. وقد تنبه جلالته إلى أن غالبية أعضاء الإدارة الحكومية التي لم تأت من الخارج جاءت من الحجاز لان جميع المدارس في البلاد كانت موجودة في تلك المنطقة. لهذا عمل على تفادي ذلك بانشاء المدارس الابتدائية والثانوية في المناطق الأخرى لمحاولة رفع المستوى التعليمي لابنائها، لكي يجعلهم يبدأون رحلتهم على طريق التقدم والتطور.

غير أن **المجتمع السعودي** بدأ يأخذ طريقًا إداريًا جديدا وهو سائر على طريق التطور والتقدم عندما بدأ الزيت في الإنتاج وتصديره إلى الخارج وبالتالي تدفق المال إلى الداخل. ان هذا التطور يمكن ملاحظته في اقامة الوزارات الحكومية. فمثلاً قبل عام ١٩٥٠ كان يوجد في المملكة ثلاث وزارات : المالية، الخارجية، والدفاع. ولكن خلال الفترة من ١٩٥٠/١٩٥٣ تم اضافة خمس وزارات هي : **الداخلية**،

المواصلات، الصحة، التعليم، والزراعة، بالإضافة إلى مديريتي شئون الزيت والمعادن والعمل والعمال.

من الدراسة السابقة يمكننا القول بأن الانصهار القومي هو العنوان الرئيسي الذي يتضمن جميع اشكال الذوبان القومي. لذلك فان الذوبان القومي هو العملية التي تؤدي إلى ربط العناصر المختلفة في داخل مجتمع ما بالانظمة السياسية، الاقتصادية، الثقافية والاجتماعية للمجتمع.

الهوامش :

1. W. E. Abraham: **The Mind of Africa,** (London, 1962).
2. J. S. Mbiti: **African Religions And Philosophies, (New York, 1963).**
3. Archie Mafeji: **The Ideology of Tribalism,** Journal of Modern African Studies (1971).
4. Mbiti: op. cit.
5. Kwame Nkrumah: **Africa Must Unite,** (New York Praeger, 1963).
6. I. Wallerstein: **Africa, The Politics of Independence,** (New York, Vintage, 1961).
7. Ali Mazrui: **Political Values And The Educated Classes in Africa,** (Berkeley University of California Press, 1978).
8. Seymour Martin Lipset: **Political Man,** (New York, Doubleday, 1968).
9. Arend Lijphart: **The Politics of Accommodation, (Berkeley** University of California Press, 1968).
10. Kurt Levine: **Field Theory In Social Science,** (New York, Harber & Bros., 1951).
11. Karl Deutsch: **Nationalism & Social Communication,** (Cambridge MIT Press, 1966).
12. Karl Deutsch: **The Nerves of Government,** (New York Free Press, 1963).
13. Lipset, op. cit., James Coleman and Gabriel Almond: **The Politics of The Developing Areas,** (Princeton: Princeton University Press, 1960).
14. Lijphart, op. cit.
15. Max Weber: **On Charisma And Institution Building,** ed. S. N. Eisenstadt, (Chicago: University of Chicago Press, 1968).
16. Ameen Rihani: **Maker of Modern Arabia,** (Boston Houghton Miflin, 1928).
17. H. St. John Philby: **Saudi Arabia,** (New York Praeger, 1955).
18. D. Van Der Meulen: **The Wills of Ibn Saud,** (New York, F. Praeger, 1957).
19. Dan Kwart Rustow: **Philosophers & Kings,** (New York, George Braziller, 1970).

(٢٠) خير الدين الزركلي، **شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز،** (بيروت : مطابع دار القلم، ١٩٧٠ م).

(٢١) م. ت. صادق، **تطور الحكم والإدارة في المملكة العربية السعودية،** (الرياض ١٩٦٥ م).